

## لاهوتيٌّ لكلِّ العصور: جون كالفن

### بقلم ستيفن لوسان

يمكن القول بسهولة إن جون كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) يُعدُّ أهم عالم لاهوت بروتستانتي لكلِّ زمنٍ وعصرٍ، وإنه يظلُّ واحدًا من الرجال العظماء بحقِّ الذين أتوا إلى الحياة على الإطلاق. وهو لاهوتيٌّ من الطراز العالمي، ومُعَلِّم شهير، ورجل دولة كنسي، ومُصَلِّح باسل. ولذلك، يعتبر كثيرون أنه كان الرجل الأشدُّ تأثيرًا في الكنيسة منذ القرن الأول. وباستثناء كُتَّاب الأسفار الكتابية أنفسهم، يُحَسِّب كالفن أشدَّ خدام الكلمة تأثيرًا الذين شهدهم العالم على الإطلاق. وكان فيليب ميلانكثون يكتنُّ له تبحرًا باعتباره المُفسِّر الأبرع للكتاب المقدس في الكنيسة، ولهذا دعاه ببساطة باسم "اللاهوتي". وقال تشارلز سبرجن إن كالفن "نطق بالحق بأشدَّ وضوح من أيِّ إنسان آخر عاش في عالمنا على الإطلاق، وعرف الكتاب المقدس أكثر من الجميع، وشرحه بأوضح صورة".

وُلِد كالفن في ١٠ يوليو عام ١٥٠٩، لوالديه جيرارد وجين كوفين، في مدينة نويون الفرنسية، بكاتدرال سیتی، التي تقع على بعد نحو ستين ميلًا شمال باريس. كان جيرارد كاتب عدل، أو مسئولًا ماليًّا، يعمل لدى الأسقف الكاثوليكي الروماني لأبرشية نويون، وبالتالي كان ينتمي إلى الطبقة المهنية. وعندما بلغ جون الرابعة عشر من عمره، التحق بالمؤسسة التعليمية الرائدة في أوروبا، وهي جامعة باريس، لدراسة علم اللاهوت، استعدادًا للانضمام إلى الكهنوت. وهناك، غاص في دراسة مبادئ عصر النهضة، والمذهب الإنساني، والدراسات الأكاديمية. وكان شابًا جادًا ومثقفًا على نحو لافت للنظر، فتخرج هناك بدرجة الماجستير (عام ١٥٢٨).

بعد تخرُّج كالفن بفترة وجيزة، شبَّ نزاع بين جيرارد وأسقف نويون. وهذا الخلاف مع الكنيسة دفع جيرارد إلى أن يعيد توجيه ابنه المتفوق إلى دراسة القانون بجامعة أورليان (عام ١٥٢٨)، ثم في جامعة بوج (عام ١٥٢٩). تعلَّم كالفن هناك اللغة اليونانية، وصقل مهاراته في التفكير التحليلي، وكيفية تقديم حُجَّة مقنعة، وهي المهارات التي استخدمها لاحقًا بفاعلية شديدة على منبر جنيف. لكن عندما توفي جيرارد بغتةً (عام ١٥٣١)، عاد كالفن، البالغ من العمر آنذاك واحد وعشرين عامًا، إلى باريس لملاحقه شغفه الأكبر، أي لدراسة الأدب الكلاسيكي. ثم عاد لاحقًا إلى جامعة بوج، ليستكمل دراسته للقانون، فحصل على درجته العلمية في القانون عام ١٥٣٢.

## اختبار تجديد فجائي

وبينما كان كالفن يدرس بجامعة أورليان، تعرّض لبعض أفكار الإصلاح المبكرة من خلال كتابات مارتن لوثر، التي كانت تُناقش على نطاق واسع في الأوساط الأكاديمية. ونتيجةً لذلك، أقبل كالفن إلى الإيمان بالمسيح، وكتب عن اختبار إيمانه، في مقدّمة كتابه عن تفسير سفر المزامير (الذي صدر عام ١٥٥٧)، قائلاً:

حاولتُ الاجتهاد في هذا المجال [أي دراسة القانون] بأمانة وإخلاص، طاعةً مني لرغبة والدي. لكنّ الله، من خلال توجيه سري من عنايته الإلهية، وجّه مسار حياتي في اتجاه مختلف. ففي البداية، كنتُ مصرّاً في عناد على اعتناق الخرافات البابوية، لدرجة جعلت مهمة إنقاذ من هُوّة المستنقع العميقة هذه مهمة مستحيلة. ولذلك، قام الله، عن طريق فعل تجديد فجائي، بإخضاع ذهني، محوِّلاً إياه إلى ذهنٍ قابلٍ للتعلّم، بعدما كان ذهنًا متحجرًا ومتصلبًا، على نحوٍ يفوق ما يمكن توقُّعه من شخص خلال هذه الفترة المبكرة من حياته. وإذ ذقتُ عيّنة من التقوى الحقيقية، وتلقّيت بعض المعرفة بها، اشتعلتُ في الحال برغبة شديدة في إحراز مزيد من التقدّم في هذا الأمر. ومع أنني لم أتخلّ تمامًا عن دراسة المجالات الأخرى، لكنني واصلتها في حماس أقل.

وفي نوفمبر عام ١٥٣٣، ألقى نيكولاس كوب (Nicolas Cop)، رئيس جامعة باريس، وصدّق كالفن، الخطاب الافتتاحي للفصل الدراسي الشتوي بالجامعة. وكان مضمون الرسالة عبارة عن مناشدة بالإصلاح، مبنية على العهد الجديد، بالإضافة إلى هجوم جريء على اللاهوتيين السكولاستيين (المدرسيين) في ذلك الوقت. واجه كوب مقاومة عنيفة لآرائه "الشبيهة بآراء لوثر". ويُعتقَد أن كالفن تعاون مع كوب في صياغة هذا الخطاب، لأنه توجد نسخة من نص هذا الخطاب مكتوبةً بخط يد كالفن. ونتيجةً لذلك، أُجبر كالفن على مغادرة باريس قبل أن يُلقَى القبض عليه، وانعزل في قصر لوي دو تيليه (Louis du Tillet)، وهو رجل ميسور الحال كان داعماً لقضية الإصلاح. وهناك، داخل مكتبة دو تيليه اللاهوتية المكتظة، قرأ كالفن الكتاب المقدس، بالإضافة إلى كتابات آباء الكنيسة، وأبرزهم أوغسطينوس. وبسبب عمل كالفن الجاد وذكائه، وبالنعمة أيضًا، تطور ليصبح عالم لاهوت علّم نفسه بنفسه، وصار يحتل مكانة ليست بقليلة.

في عام ١٥٣٤، انتقل كالفن إلى بازل في سويسرا، التي كانت قد أصبحت آنذاك معقلًا بروتستانتيًا، كي يقضي وقتًا من العزلة بهدف الدراسة. وفي بازل، أصدر كالفن الطبعة الأولى من الكتاب الذي أصبح بعد ذلك تحفته اللاهوتية، والكتاب الأهم على الإطلاق خلال فترة الإصلاح، وهو الكتاب بعنوان "أسس الدين المسيحي" (Institutes of the Christian Religion). وفي هذا الكتاب، عرض كالفن أساسيات الإيمان البروتستانتي، وقدم حجة مقنعة تؤيّد

التفسير المصلح للكتاب المقدس. ومن العجيب والمذهل أن كالفن بدأ هذا العمل وهو في الخامسة والعشرين من عمره، أي بعد تجديده بعام واحد فحسب، ونشره وهو في السادسة والعشرين من عمره.

في عام ١٥٣٦، قرّر كالفن أن ينتقل إلى ستراتسبرج، الواقعة في جنوب غرب ألمانيا، لمواصلة دراسته كباحثٍ منعزلٍ. لكنّ الحرب التي نشبت بين فرنسيس الأول وتشارلز الخامس، إمبراطور روما المقدّس، منعت من سلوك الطريق المباشر إلى هناك، فأجبر على الانعطاف إلى جنيف، حيث كان ينوي قضاء ليلة واحدة فحسب. لكن عندما دخل المدينة، تعرّف عليه سكانها في الحال، بأنه المؤلف الشاب لكتاب أُسس الدين المسيحي. واصطحبه الداعمون للإصلاح لمقابلة ويليام فاريل (William Farel)، الذي كان قد قاد الحركة البروتستانتية في جنيف لمدة عشر سنوات. كانت جنيف قد صوّتت مؤخرًا لصالح الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، لتصير مدينة مُصلحة. لكنها كانت في حاجة ماسة إلى مُعلّم يستطيع صياغة الحقائق المُصلحة. وحثّ فاريل الناري كالفن على تولّي هذه المهمة. وعندما تردّد كالفن بشأن قبول ذلك، لجأ فاريل إلى أسلوب التهديد غير اللائق. وعندما كتب كالفن عن ذلك، قال:

فاريل، الذي كان مُشتعلًا بغيرة استثنائية على تقدّم الإنجيل، لم يدّخر أيّ جهد لاحتجازه هناك. وبعدها علم أن قلبي مائلٌ أكثر إلى تكريس نفسي للدراسة الشخصية المنعزلة، الأمر الذي لأجله كنتُ أرغب في التفرُّغ من أيّ مهامٍ أخرى، وبعدها اكتشف أنه لم يحقق شيئًا باستخدام أسلوب التوسّل، شرع يهدّدني بأن الله سيلعن عزلتي، وسكينة الدراسة التي كنتُ أُنشدها، إذا ما انسحبتُ ورفضتُ تقديم المساعدة، بينما الضرورة مُلحةٌ للغاية. أصابني هذا التهديد بالرعب لدرجة أنني تخلّيتُ عن القيام بالرحلة التي كنتُ قد شرعتُ في القيام بها.

بدأ كالفن خدمته في جنيف محاضرًا، ثم راعيًا للكنيسة. ومع فاريل، ابتداءً كالفن يمارس مهمة توفيق حياة الكنيسة وممارساتها مع تعاليم الكتاب المقدس. وكان تطبيق التأديب الكنسي عند مائدة العشاء الرباني هي أحد الإصلاحات التي مارسها. لم يلق هذا قبولًا لدى مواطني جنيف البارزين، الذين كان كثيرون منهم يعيشون في الخطية. وبلغت هذه الأزمة نقطة الغليان يوم أحد عيد القيامة في ٢٣ أبريل عام ١٥٣٨، عندما رفض كالفن منح العشاء الرباني لبعض الأشخاص البارزين في المدينة، الذين كانوا يعيشون في خطية صريحة وعلنية. وازداد التوتر إلى حد كبير، لدرجة أن كالفن وفاريل أُجبرا على مغادرة جنيف.

## النفي والعودة

ذهب كالفن بعد ذلك إلى ستراسبج، حيث كان ينوي الذهاب قبل ذلك بعامين. وكان غرضه هو الهروب عن أعين الناس. لكن مارتن بوسر (Martin Bucer)، كبير المُصلِحين في ستراسبج، أصرَّ على أن يواصل كالفن خدمة المنبر العلني، وهَدَّده مثلما فعل فاريل في وقت سابق. استسلم كالفن لبوسر، وأصبح راعيًا لما يقرب من خمسمئة لاجئًا بروتستانتيًا من فرنسا.

لكن، أتيح لهذا اللاهوتي في منفاه في ستراسبج أيضًا الوقت والحرية للكتابة، فكتب تفسيره لرسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، وأضاف إلى محتوى كتاب "أسس الدين المسيحي"، كما ترجمه إلى اللغة الفرنسية. وفي هذا الوقت نفسه، كتب كالفن المؤلف الذي أشيد به، ووُصِف بأنه أعظم دفاع عن الإصلاح، وهو كتاب *A Reply to Sadoleto* ("ردُّ على سادوليتو"). فبعد مغادرة كالفن لجنيف، كتب الكاردينال جاكوبو سادوليتو (Jacopo Sadoleto) رسالة عامة إلى سكان المدينة، يدعوهم فيها إلى العودة إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. فناشد كبار رجال المدينة كالفن أن يقوم بالردِّ عليه، الأمر الذي فعله كالفن، مقدِّمًا الرد الذي كان بمثابة دفاع مُقنع عن مجد الله في إنجيل النعمة. وخلال وجود كالفن في ستراسبج، تزوَّج أيضًا من إيديليت دي بور (Idelette de Bure)، وهي أرملة كان لديها طفلان، استطاعت أن تضيي الكثير من السعادة على حياة كالفن.

وبعدما قضى كالفن ثلاث سنوات سعيدة في ستراسبج، كتب إليه كبار رجال مدينة جنيف يطلبون منه العودة ليكون راعيًا لهم. ففي أثناء غيابه، تدهور الوضع الديني والسياسي للمدينة. في البداية، لم يكن لدى كالفن أيُّ نية للعودة. وفي رسالة منه إلى فاريل في ٢٩ مارس عام ١٥٤٠، قال: "أفضِّل أن أخضع للموت مئة مرة على أن أخضع لذلك الصليب، الذي عليه يضطر المرء أن يموت في اليوم ألف مرة". لكن كالفن غيَّر رأيه في النهاية، رغم المخاطر العديدة التي كان يَعْلَم جيدًا أنها تنتظره في جنيف. فقد رأى كالفن أن حياته في المسيح مسلِّمة لله بالكامل وطواعية. وهذا هو التوجُّه القلبي المعبَّر عنه في ختم كالفن الشخصي، الذي كان في شكل يدٍ تحمل قلبًا، وتحتها شعار يقول: "هوذا قلبي أعطيك يا رب، في توقيٍ وجدية". وبالتالي، خضع كالفن لما رأى أنها مشيئة الله، وعاد إلى تولِّي وظيفته الرعوية في سويسرا.

وصل كالفن إلى جنيف في ١٣ سبتمبر عام ١٥٤١، بعد غياب دام ثلاث سنوات ونصف. وفي عظته الأولى، استأنف شرحه للكتاب المقدس من الآية التالية لآخر آية كان قد تناوَلها قبل نفيه. وكان هدفه من هذا الاستئناف هو أن يصرِّح بجرأة بأن الوعظ بالكلمة آية تلو الأخرى سوف يشغل المكانة الأساسية في خدمته.

قُسِّم تويي كالفن وظيفته الرعوية للمرة الثانية في جنيف إلى فترتين. الفترة الأولى تمثَّلت في سنوات المعارضة (١٥٤١-١٥٥٥)، التي فيها قاسى كالفن الكثير من المقاومة والصعوبات. بدأت هذه المعارضة من الوطنيين، وهم أعرق العائلات وأكثرها نفوذًا في جنيف. فلم يكن كالفن يروق لهم إلى حدِّ كبير لأنه كان أجنبيًا. كما واجه كالفن مقاومة من المتحرِّرين، وهم أشخاص في جنيف كانوا رافضين الخضوع للشريعة، ويعيشون في الخطية والزنا بشكل صريح وعلني. لكن أصعب مشكلة على الإطلاق تمثَّلت في الأزمة التي تسبب فيها مايكل سيرفيتوس (Michael Servetus) في عام ١٥٥٣. فقد قام قبل كبار رجال المدينة بإعدام هذا المهترق المعروف حرقًا على العمود، بعدما استدعوا كالفن ليكون شاهدًا خبيرًا على المحاكمة. ومن بين الضيقات الأخرى التي عانى منها كالفن خلال هذه الفترة هي وفاة جاك، ابنه، بعد أسبوعين فقط من ميلاده، في عام ١٥٤٢، وكذلك وفاة إيديليت، زوجته، في عام ١٥٤٩، بعد زواج دام فقط تسع سنوات.

وأخيرًا، هدأت هذه المعارضة الاستنزافية. ويُمكن وصف السنوات التسع الأخيرة من حياة كالفن (١٥٥٥-١٥٦٤) بسنوات الدعم. فبعد طول انتظار، حصل كالفن على دعم وتأييد كبار رجال المدينة. وبهذا الدعم، استطاع تأسيس أكاديمية جنيف في عام ١٥٥٩، مستندًا في ذلك إلى النموذج الذي رآه في ستراسبج. وفي هذه الأكاديمية، كانت هناك مدرسة خاصة للتعليم الابتدائي، ومدرسة حكومية تقدِّم دراسات أكثر تقدمًا في لغات الكتاب المقدس وعلم اللاهوت، بهدف تدريب القساوسة، والمحامين، والأطباء. كذلك، في عام ١٥٥٩، أُصدرت الطبعة الخامسة والأخيرة من كتاب "أسس الدين المسيحي". وفي عام ١٥٦٠، أُصدر كتاب جنيف المقدس، الذي يُعد أول ترجمة إنجليزية للكتاب المقدس تحوي ملاحظات لاهوتية في الهوامش. وإن هذا العمل الضخم والهائل، الذي أصدره رجال تعلَّموا على يد كالفن، قدم فلسفة ومنظورًا حياتيًا عن سيادة الله على كل الخليقة.

أرسل كالفن رُعاة ناطقين باللغة الفرنسية، كان قد درَّبهم على خدمة الإنجيل، من جنيف إلى مقاطعات أخرى ناطقة باللغة الفرنسية في أوروبا. ذهب غالبية هؤلاء إلى فرنسا، حيث توسَّعت الحركة المصلحة لتشمل نحو عُشر عدد السكان. وفي النهاية، ذهب ثلاثمئة مُرسَل ممَّن تلقوا تدريبهم في جنيف إلى فرنسا. وبحلول عام ١٥٦٠، زُرِع ما يزيد على مئة كنيسة تحت الأرض في فرنسا على يد رجال أرسلوا من جنيف. وبحلول عام ١٥٦٢، تضاعف عدد الكنائس إلى نحو ٢١٥٠ كنيسة، تضم أكثر من ثلاثة ملايين عضوًا. وبلغ عدد أعضاء البعض من هذه الكنائس الآلاف. نتج عن هذا النمو تأسيس كنيسة هوجوينوت، التي استطاعت أن تتغلَّب تقريبًا على الإصلاح الكاثوليكي المضاد في فرنسا. بالإضافة إلى ذلك، قام مُرسَلون تدرَّبوا في جنيف بزُرِع كنائس في إيطاليا، والمجر، وبولندا، وألمانيا، وهولندا، وإنجلترا، واسكتلندا، وراينلاند، بل وفي البرازيل أيضًا.

## خطاب وداعي

في أوائل عام ١٥٦٤، أصيب كالفن بمرض خطير. وفي يوم الأحد ٦ فبراير، وعظ للمرة الأخيرة فوق منبر كاتدرائية القديس بطرس. وبحلول شهر أبريل من هذا العام نفسه، بدا واضحًا أنه لم يتبقَّ الكثير في حياته. وقد واجه كالفن الموت، وهو في الرابعة والخمسين من عمره، بالطريقة نفسها التي واجه بها المنبر طوال حياته، أي في ثبات وعزم شديد. وإن قوة إيمانه، المؤسَّسة على سيادة الله، تجلَّت في شهادته ووصيته الأخيرة. ففي ٢٥ أبريل عام ١٥٦٤، نطق كالفن بالكلمات التالية:

أشكر الله، ليس فقط لأنه أشفق عليّ، أنا المخلوق المسكين، مخرجًا إياي من هاوية عبادة الأوثان التي كنتُ غارقًا فيها، كي يحضرنِي إلى نور إنجيله، ويجعلني شريكًا في عقيدة الخلاص، التي لستُ أستحقها على الإطلاق؛ وليس فقط على رحمته المستمرة، التي بها دعمني وساندني رغم خطاياي وتقصيراتي الكثيرة جدًّا، التي كان من شأنها أن تجعلني أستحق أن يرفضني مئة ألف مرة؛ بل أشكره بالأكثر لأنه بسط إليّ رحمته إلى هذا اليوم، مستخدمًا إياي، ومستخدمًا تعبي وخدمتي، حتى يعلن حقَّ إنجيله.

وبعد ذلك بثلاثة أيام، في ٢٨ أبريل عام ١٦٥٤، دعا كالفن زملاءه من القساوسة، والرعاة، والخدام إلى غرفة نومه، وألقى عليهم خطابه الوداعي، محذرًا إياهم من أن معارك الإصلاح لم تنته بعد، بل كان كلُّ ما يحدث مجرد البداية، فقال: "ستواجهون صعوبات بعدما يأخذني الرب إليه ... لكن تحلُّوا بالشجاعة، وحصَّنوا أنفسكم، لأن الله سيستخدم هذه الكنيسة، ويحفظها، وهو يطمئنكم بأنه سيحميها". وبهذا، سلم كالفن الراية من يديه الواهنتين إلى أيديهم.

فارق كالفن الحياة في ٢٧ مايو عام ١٥٦٤، بين ذراعي ثيودور بيزا (Theodore Beza)، الذي صار خليفته. وكانت كلمات كالفن الأخيرة، القائلة "حتى متى يا رب؟"، هي كلمات الكتاب المقدس نفسه (مزمو ٧٩: ٥؛ ٨٩: ٤٦). فقد مات وهو يقتبس من الكتاب المقدس الذي وعظ منه طوال حياته. ودُفن هذا الخادم المتواضع دفنًا لائقًا في مقبرة عامة، في قبرٍ بلا حجر شاهد، وذلك بناءً على طلبه.

د. ستيفن لوسان هو مؤسس ورئيس هيئة "خدمات وان باشون" (OnePassion Ministries)، التي يقع مقرها في دالاس. وهو عضو هيئة تدريس في هيئة "خدمات ليجونير"، وأستاذ وعميد لقسم الدكتوراة في الخدمة بكلية ماستر للاهوت، ومدير معهد الوعظ التفسيري. وقد ألف العديد من الكتب، منها *The Passionate Preaching of Martyn Lloyd Jones* ("الوعظ الشغوف الذي قدّمه مارتن لويد جونز")، و*John Knox: Fearless Faith* ("جون نوكس: إيمان لا يخشى شيئاً")، و*The Moment of Truth* ("لحظة النطق بالحقيقة").

تم نشر هذه المقالة في الأصل في موقع [ليجونير](https://ar.ligonier.org/).